قرأت العدد الماضي من "الآداب"

عبد اللطيف شراره

طرح العدد الماضي من « الاداب » في معظم ابحاثه ، مسالة تبدو انها « متخصصة » هي مسالة المجلات الادبية والثقافية . وهي في جوهرها ، اعم واشمل مما بدت او تبدو . وذلك واضح في البيان الختامي لندوة المجلات الادبية والثقافية ، الذي تحدث عن « المرحلة التاريخية الراهنة ونحن على مشارف الربع الاخير من القرن العشرين » وعما تتطلب هذه المرحلة من الادباء والمثقفين في اسيا وافريقيا .

لم تكن المسالة اذن مختصة، فيحقيقتها، بالمجلات الادبيةوالثقافية، وانما كانت ، في حقيقتها ـ مرة ثانية ـ مسالة تربية ، وتعليم ، وحاكم ومحكوم ، ومؤلف ، وطابع ، وناشر ، وقاريء ، وبالتالي ، اي بطريق غير مباشرة ، مجموعة مسائل متداخلة ، متشابكة ، لا سبيل الى فصل واحدة منها عن الاخرى . انها على التحقيق ، مسالة تربية الطفل الاسيوي ـ الافريقي ، وتوجيهه نحو المعرفة وحبها ، وطرائق تعليمه ، واساليب الحكام في تامين حاجاته وتلبية متطلباته، واتجاهات المحكومين ومناهجهم في تحقيق اغراضهم ، وتطلعات المؤلفين والكتاب في كل ما ينهدون اليه من كتاباتهم وتاليفهم ، ومواقف اصحاب المطابع ، والناشرين ، والقراء ، والقارئات من المربين، والمعلمين ، والادباء ، والحكام ، والمحكومين في اخر مرحلة .وتلك هي القضية المطروحة .

ثلاث ثغرات

لقد بدا لي ان ثمة ثلاث ثغرات في ابحاث تلك الندوة المتخصصة: اولاها ان احدا من الذين خاضوا في احاديثها . لم يتناول الجانب التاريخي في نشوء المجلات الادبية والثقافية في العالم العربي، ولا في قارتي اسيا وافريقيا ، اذ كان ينبغي ان يتفرد لهذا الموضوع بحث واحد على الاقل ، يروي لنا كيف نشات « الجوائب » مثلا ، او « الجنان » او « المقتطف » واخواتها الثلاث المعروفة في دنيا العرب من اقصاها الى اقصاها ، وهي « الهلال » ، و « المشرق » ، و « العرفان » .. ويمضي في عرضه التاريخي حتى يصل الى «الاديب» و« الاداب » و« الطريق » الخ .. لان مثل هذا التاريخ يلقي ضوءا على الواقع الذي تعيش فيه المجلات الحالية ، وما تمر به من تجارب ، وتعانيه من بلاء .

والثغرة الثانية ان احدا لم يتحدث عن مساهمة الحكام العرب ـ والزعماء الاسيويين والافريقيين عامة ـ في الاعمال التعليمية ، والدراسات الثقافية ، والشؤون الادبية والفكرية ، وفي اطار الصحافة الادبية الخالصة بعد نشوئها ، في الوقت الذي كان به حكام العرب من الجاهلية (امرؤ القيس الملك الضليل) ، مرورا بالمامون (الخليفة الفيلسوف) الى احمد لطفي السيد وطه حسين اللذين وليا الوزارة في مصر ، الى دولة الاستاذ تقي‌الدين الصلح في لبنان ، يولون‌الشعر والادب والفكر اقصى ما لديهم من عناية ورعاية ،في‌بعض الحالات.

اما في اسيا فلنا مثل واضح في غاندي نفسه الذي اسس صحيفة « الهند الفتاة » ،ثم في السيد جمال‌الدين الافغاني والشيخ محمد عبده في مجلة « العروة الوثقى » . وكان لنا في « تكروما » زعيم غانا ، مثل افريقي اوضح ، على مساهمة الحاكمين في اعمال القلم ، ورسالة القلم الى الحياة العامة .

وبقيت الثغرة الثالثة ، وهي افتقاد الحديث في تلك الندوة عن جهود المراة في هذا الحقل ، وعن المجلات النسائية وما قدمته في‌سبل التوعية ، وميادين التثقيف ، بحيث ان احدا لم يات على ذكر مجلة « مينرفا » مثلا في لبنان ، و « السيدات والرجال » او « حواء »في مصر .

واذا كانت المجلات الادبية والثقافية في البلاد العربية ـ والاسيوية الافريقية ـ تعاني ما تعاني من ضيق ، وقصر عمر ، وغير ذلك .. فان معاناتها هذه ، تعود في اكبر جزء منها الى ان الفتاة العربية ، والمراة في القارتين على العموم ، لا تقرا ، ولا تشارك في الحياة الادبية والثقافية ، ولا توليها شيئا من اهتمامها .. الا في النزر النادر الذي لا يعتد به ، ولا يمكن ان يعتد به ، اذا ظلت الحال على هذا المنوال !

ندوتنا

ولنبدا من البداية ! والبداية في العدد الماضي من « الاداب » للدكتور سهيل ادريس ، حيث يبين ان « المجلة الادبية في العالم العربي خاصة ، مهملة الشان، مكسورة الجناح ، الا ان تكون محمية من السلطة ، الممثلة بوزارة الاعلام او سواها من وزارات الدولة » . ومعنى ذلك ان مجلة « العربي » او « عالم الفكر » مثلا ، اللتين تصدران في الكويت ، لا يمكنهما ان تحلقا ، ولا ان يرتفع شانهما اذا هما اعتمدتا على قرائهما وحدهم ، فيما تنفقان وتعطيان على السواء، وما يقال في هاتين المجلتين الكويتيتين ، يقال في‌غيرهما من المجلات الادبية والثقافية التي ترعاها الدولة في اي قطر من الاقطار العربية .

هذا صحيح . وهو صحيح ايضا في الاتحاد السوفياتي ، وغيره من البلدان الاشتراكية ، وعدد من اقطار الشرق الاقصى . اما في فرنسا ، وانكلترا ، والبلدان الاسكندينافية ، فان المجلات الثقافية والادبية تصدر ،في‌معظمها ، عن منظمات ، واحزاب ، وجمعيات علمية وثقافية .. انا لنجد مجلة مثل « انكاونتر » في بريطانيا تقوم اساسا وتنتشر لخدمة الافكار والمبادىء التي تدعو اليها « المنظمة العالمية لحرية الثقافة » ،ونجد وراء « الازمنة الحديثة » التي‌اسسها جان ـ بول سارتر في فرنسا ، هيئة تنمو وتزداد نموا ، وتستمد مؤيديها من جهات العالم الاربع لانها تهدف الى مبادىء معينة ومقررة، وتعمل على نشر فلسفة يرتضيها من يرتضيها ، ويرفضها من يرفضها . وهذه اجلات تشبه ، على نحو من الانحاء ، مجلات « المجامع العلمية » التي كانت تصدر ولا تزال، عن دمشق ، وبغداد ، والقاهرة ، بمعنى ان المنظمات والهيئات التي ترعاها ، وتتولى شؤونها، وتهتم بانتشارها ، تظل هي المسؤولة عن نموها وتقدمها ، او ركودها وتوقفها .

بقي ان البلدان العربية شهدت منذ مطلع القرن العشرين الى مشارف الربع الاخير منه ، اقبالا فريدا ، منقطع النظير ، على انشاء المجلات الادبية : الاسبوعية والشهرية ، دون لحاظ من منشئيها لما يمكن ان تفضي اليه . وليست قصة « الرسالة »لاحمد حسن الزيات،

و« الثقافة » لاحمد امين بغريبة عن اذهان العرب المعاصرين في المغرب والمشرق معا . وهو هـو حديث المجلات المماثلة في العراق وسوريا ولبنان واقطار المغرب العربي ، كما هو مبسوط بالتفصيل، لدى عائدة مطرجي ادريس ، وعزالدين اسماعيل ، وعبدالجبار داود البصري ، وشمران الياسري في العدد نفسه من « الاداب » . فماذا يستفاد من هذه التجارب والدراسات ؟

أظن انها تفصح عن فكرة واحدة ، وتؤدي الى نتيجة واحدة ، هي أن الصحافة الادبية تتجه في بلادنا العربية كلها نحو « الانحصار في اطر جماعية » ، بحيث لا تنشأ بعد مجلة ثقافية يمتد بها العمر طويلا ، الا حين تكون « لسان جماعة » . وعندذاك، يصبح نشاطها من نشاط الجماعة التي اتخذتها اداة تعبير عنها ، وزوالها مرتهنا بتفكك تلك الجماعة او توقفها .

ولكن الدكتور سهيل ادريس يواجه الموقف ، من زاوية اخرى ، في افتتاحيته ، حين يوضح « ان اخطر ما تعانيه المجلات الادبية ، والعربية منها بصورة خاصة ، هو الرقابة التي تحاول قمع الفكر في كثير من البلاد العربية » . وينهي كلامه بدعوة هذه المجلات الى مواصلة « نضالها وصراعها بمزيد من الشجاعة والتضحية ، من اجل حريتها الفكرية الكاملة » .

هنا ، أعود الى النقطة الاساسية التي انطلق منها البحث ، وهي شمول القضية المطروحة وتداخل اجزائها وتشابك فروعها . واهم ما فيها ان الفكر لا يزال ، ازاء الجهل السائد ، والاميه المتفشية ، وانعزال المرأة عن الحياة الثقافيه ، غير ذي اثر فعال في بلدان العالم الثالث ، فلا بد اذن من ايجاد الظروف الموضوعية المؤاتية لنموه ، وازدهاره ، وانتشاره ، وهو الكفيل بعد ذاك بانقاذ الحاكمين والمحكومين معا ، من القمع ، والضغط ، والرقابة ،وسائر ما يشكو منه ذوو العقول النيرة ، اي ان الشجاعة والتضحية علىجلالة قدرهما ، لا تجديان المجلة . ولا صاحبها ، ولا كتابها ، اذا هي لم تجد من يقرأها في جميع الاوساط ـ والاوساط النسائية خاصة ـ او اذا كان قراؤها لا يتجاوزون عدد الاصابع من الجنسين !

واذا « كان المطلوب مزيدا من روح الجدية والمسؤولية والتعمق » الى المشاركين في ندوة المجلات الادبية ، فان ذلك هو المطلب العام الذي يرفعه الواعون ، في كل مكان وزمانالى اهل الحل والربط في كل شأن من الشؤون العامة . ولكنه مطلب لا يتحقق الا برفع المستوى الفكري ، وهذا ما تعمل المجلات الادبية الراقية فيسبيله، على كل حال ، لمجرد انها راقية .

دور المجلات الثقافية التقدمية في العالم الثالث

.. وهنا نصل الى بحث الاستاذ لطفي الخولي الذي عرض بكثير من التفصيل والوضوح « معنى » العالم الثالث ،قبل ان يتحدث عن المجلات ، واعتمد في عرضه « الوقائع الرئيسية »التالية :

١ ـ انهت مجموعة بلدان العالمالثالث مهمةالسيطرة الاستعمارية، واقامت دولا مستقلة .

٢ ـ تشترك هذه البلدان جميعا في انها تخوض كفاحا اشد قسوة واكثر تعقيدا ، بعد تحقيق السيادة القومية ، لانها تواجه مهام تثبيت الاستقلال السياسي، وتحقيق الاستقلال الاقتصادي والقضاء على ميراث رهيب من التخلف في كافة المجالات .

٣ ـ تتميز هذه البلدان بتكويناتها الاجتماعية المتنوعة ، والمختلطة للغاية .

٤ ـ تشترك هذه البلدان جميعا في انها تواجه تحديا خطيرا ، هو اللحاق بالثورة العلمية والتكنولوجية .

٥ ـ تشترك هذه البلدان جميعا في انها تواجه التحولات الاجتماعية « من أعلى » وعن طريق جهاز الدولة ، وبالاساليب البيروقراطية .

٦ ـ هناك مجموعة كبيرة من دول العالم الثالث اعلنت غداة الاستقلال ان بناء « الاشتراكية » هو سياستها الرسمية .

٧ ـ بلدان العالم الثالث كلها ، بدون استثناء تقريبا ، ميدان حرب ايديولوجية حامية الوطيس .

لا بد من الاشارة الى ان هذه « الوقائع الرئيسية » ليست « وقائع » الا من خلال نظرة اجمالية ، والنظرة الاجمالية تضربدوما صفحا عن حقيقة ما يجري في حركة الحياة اليومية ، فالعالم الثالث لم يتوصل بعد ، في الواقع ، الى « انهاء » المهمة الاستعمارية ولا تزال دوله المستقلة تعاني الكثير من الضغوط الاستعمارية التي تمارس عليها بصورة غير مباشرة . والسيادة القومية لم تتحقق في كل بلدان العالم الثالث ، بل انها لا تزال عرضة لتطاولات واعتداءات صارخة ، تقوم بها دول « متخلفة » من هذه الناحية كجنوب افريقيا ، واسرائيل ، وفورموزا . وهي دول « اقيمت » مستقلة ، وهي « لم تقم » ،ولا في استطاعتها ان تقيم شيئا مما يصح ان يسمى استقلالا ، لان وجودها نفسه قائم على « تبعيتها » لغيرها . ووجودها لا يزال في الواقع ، اعتداء على السيادة القومية في افريقيا كلها ، والشرق الاوسط ، والشرق الاقصى . وما يقال في هذه الدول الثلاث ، يقال عن غيرها في اميركا اللاتينية ، ممن يقوم وجودها على التبعية ..

ولي اعتراض على استعمال كلمة « التحدي » في مواجهةاللحاق بالثورة العلمية والتكنولوجية ، اذ ليس في الموقف الذي يعرضه الاستاذ الخولي ما يشكل تحديا حتى بالمعنى المجازي ، وانما هناك ظروف تاريخية ، واوضاع اقتصادية ، وعقليات كانت سائدة ،ادتالى هذا الواقع . ثم ان للامم ، كما للافراد ، طاقات وامكانات لا تملك ان تقفز من فوقها ، فاذا لم تستطع فرنسا مثلا ان ترسل روادا الى القمر ، لان موازنتها لا تتيح لها ان تنفق في هذا السبيل،الاموال اللازمة ، فهل يعني ذلك ان الصعود الى القمر يشكل تحدياتكنولوجيا للفرنسيين ؟! وكيف ذلك ؟

وها هي الهند تصنع اليوم القنابل الذرية والنووية ، وكان البانديت نهرو قد صرح قبل وفاته باعوام ،ان في امكان الهند انتصنع القنبلة الذرية ، ولكن ليس من سياستها ، ولا من اهتمامها انتكدس الاسلحة ، ولا ان تستعملها .

الواقع ان التقدم التقني لا يشكل تحدياالشعوب العالم الثالث، فليس ايسر عليها من تحقيقه حين تنصرف الى تحقيقه . وتبذل في سبيله ما يحتاج اليه .

اما النقطة الخامسة ، اي مواجهة التحولات الاجتماعية من اعلى ، وعن طريق البيروقراطية ، فان الغموض يكتنفها من جهاتها الاربع ، والمسالة التي تنبثق عنها ، ولا يبقى من سبيل الىمعالجتها، هي ان التحول الاجتماعي لا يجري ولا يتحقق الا بالتربية ، والتوعية ، وتنوير الاذهان ، وبث الافكار ، وهذه كلها « عمليات » يقوم بها الكبير تجاه الصغير ، ولا يملك ان يقوم بها الصغار تجاه الكبار ، والقاصرون تجاه المسؤولين .

ليس هذا « تبريرا » للبيروقراطية ، وانما هو « اثارة » للواقع في معطياته العملية ، واذا كانت دول العالم الثالث تحاول استغلال البيروقراطية لاجراء تغيير اجتماعي او تحقيق ما يسمونه «الاصلاح» فلانها لا تجد وسيلة اخرى ، بحسب ما يكتنفها من ظروف ويتاح لها من امكانات، الى تغيير ما يعمل المثقفون على تغييره ، او يتطلعون

ـ التتمة على الصفحة ٧٢ ـ

قرأت العدد الماضي من الاداب

تابع المنشور على الصفحة ـ ١٦ ـ

الى تغييره ، فهل هناك بديل لهذه المحاولة ؟!

لقد اوضح الاستاذ الخولي ، على نحو جلي ودقيق ومقنع ، مواقف المثقفين وصراعاتهم « حول اختيار طريق التطور الاجتماعي »، بيد انه لم يوضح جانبا اراه اساسيا ، وهو ان للثقافة نفسهامستوى ادنى لوقف الصراع ، بمعنى انه اذا لم يجمع المثقفون على الاهتمام بالشؤون الثقافية وايلائها القسم الاكبر من جهودهم ، اية كانت اتجاهاتهم واحزابهم في العالم الثالث ، بقي امرهم مشتتا ،وضاع اثرهم ، واصبح شانهم شان غير المثقفين ، وغدوا والاميين سواء !

تلك هي النتيجة العملية الوحيدة للصراع بين المثقفين ،او هي النتيجة الاخيرة التي تسفر عنها الحرب الايديولوجية في المرحلة الراهنة من تاريخ العالم الثالث . والاستعمار يعرف ذلك ، هو يسعى في تاجيج هذه الحرب ، على كل صعيد ، ولا حاجة الى البيان ان المثقف البعيد النظر ، الى اي طرف مال ، هو الذي يضع فياعتباره هذا الواقع ، ولا يسهو عن النتيجة التي ينشدها الاستعماريون ، ويحول دون تحقيقها ، قدر المستطاع ، وفي العالم الثالث خاصة .

والحقيقة هي ان العالم الثالث يتميز بناحيتين : اولاهما وجهة اهتماماته ، فهو لا يزال يحس ويلمس ويرى ان مشكلاته غير المشكلات التي يعانيها اي من العالم الاول او العالم الثاني ، ولا يجدالسبيل الى حلها بمفرده .

والميزة الثانية ان لكل بلد او مجموعة بلدان من مجموعاتالعالم الثالث ، تراثها ، وتاريخها ، وما يجره التاريخ وراءه والتراث ،من عقلية ، وتقاليد ، وعادات كلها او معظمها يحتاج الى اعادة نظر، وتغيير : في الاقتصاد ، والاجتماع ، والثقافة ،والسياسة .

واذا كان للمجلات التقدمية الثقافية من دور ، فلن يكوندورها سوى « التشديد » على صرف الاهتمام الى التثقف ، والتنور ، والاطلاع ، و « كشف » الاساليب ، والمناورات ، والخدع ، التي يلجا اليها اعداء الشعب في الداخل والخارج للقضاء على وحدته،والحيلولة بينه وبين ما يتطلع اليه من حرية ، وعدالة ،وكرامة ..

وهذا ما احسن الاستاذ الخولي ايضاحه، ولكن من غير ايجاز . والاسهاب واضح في « ملحق البحث » . ولكنه اسهاب مفيد ، لانه يقدم ارقاما ووقائع يفيد منها المختصون والعاملون في هذا الحقل.

البحث عن دور ممكن

... ويتناول الموضوع نفسه الاستاذ الياس خوري ، باحثا عن دور « ممكن » مشيرابذلكالىقيام دور « مستحيل » . وكل ما يريده « البحث عن التيارات الايديولوجية الاساسية وشروط ولادتها » . متوسلا الى دخول بحثه ، بـ « النقاط التطورية ـ التاريخية » ، ثم يستعرض هذه النقاط ،في ثلاث : ١ ـ الاحتلال العسكري المباشر الذي مارسته اوروبا الراسمالية ، والذي بدا عمليا مع حملة بونابرت على مصر . ٢ ـ ولادة دولة محمد علي في مصر . ٣ ـ نمو المدن التجارية وتوسعها على حساب ضرب الحرف المحلية .

بيد أن ما جرى وراء هذه الظاهرات الثلاث ، والذي جعل حدوثها ممكنا ، لم يلمح اليه الاستاذ خوري في قليل ولا كثير ، والالماح اليه او الالمام به ، ولو « بشكل تصنيفي سريع » كما اوضح هو بنفسه، يمكنه من بيان « الرد التقليدي » و« الرد الحديث » على اجلى ما يمكن . وذلك لان الاحتلال العسكري المباشر الذي مارسته اوروبا ، فهمه الاولون على انه « نتيجة الابتعاد عن قواعد الدين ومبادئه » ، والانصراف عن الجد الى البذخ والمتارف ، واستبداد السلطاتالحاكمة انذاك ، سواء تمثلت في المماليك الذين حاربهم نابليون ، او في الولاة العثمانيين . وهذا جلي" واضح في « طبائع الاستبداد » للكواكبي ، مثلا . ولم تكن ولادة دولة محمد علي في مصر ، ظاهرة منعزلة كذلك ، فان لها عواملها الداخلية ، بنسبة ما كانت لها عواملها الخارجية . وهو هو شان نمو المدن التجارية ، في تطور التاريخ الديمغرافي والاقتصادي .

ومد كان ذلك هو « الفهم السائد » لما حل بهذه المنطقة منكبات، واضطرابات ، واختلالات ، منذ حملة بونابرت الى يومنا هذا فيبعض المناطق التي لا تزال تعاني من وطاة الاحتلال الاجنبي (فلسطين)، فقد راح المستعمرون انفسهم يؤيدون بمسالكهم العملية ذلك الفهم ، الى درجة ربطوا معها حملاتهم على هذه البلاد ، ربطا تاريخيا بالحروب الصليبية . هذا معروف لا حاجة الى تفصيله .

اريد ان اصل الى بيان هذه الناحية ، وهي ان العقلية التي سادت اوروبا في مطلع القرن الماضي وامتدت حتى نهاية الحرب العالمية الثانية ، لم تكن « علمية » من الناحية الاجتماعية ، اكثر مما كان حالها في الشرق ، ولا كانت ارقى ، ولا احفل بالقيم الموضوعية . وذلك هو التخلف الحقيقي الذي لا يزال يتمثل في افكار الذين يؤيدون الصهيونية ، ويناصرونها في كل مجالوميدان. ودور المثقفين العرب الذي يبدو « مستحيلا » عليهم ، انما هو توعية الجماهير الاميركية ، وانتزاع اوروبا من الضلال الذي تسوقها فيه الدعايات الصهيونية . اما الدور الممكن فهو بكل بساطة ، توعية الجماهير العربية ، وانتزاع الحكام والمحكومين فيها من الاوهام التي نشرتها اوروبا ، ولا تزال تغذيها اميركا في طول البلادالعربية وعرضها .

والقضية الخطيرة التي يثيرها الاستاذ خوري ـ وبسطها قبله الاستاذ الخولي ـ هو تعدد الايديولوجيات ، واصطراعها على صعيد الثقافة والمثقفين ،قبل غيره من الاصعدة .

غير اني لا اجد هذا الموقف منحصرا في الاقطار العربية وحدها، بل يكاد يكون « سمة العصر » كله ، في كل بلد . ولنا في فرنسا وايطاليا مثلان صارخان على ذلك .

والعقدة الكبرى في هذه القضية هي حرية الفكر ، والصدق في ممارسة هذه الحرية ، لان الجموع في العالم الثالث اجمالا ، غيرقادرة على فهم الفكر ، فضلا عن حمايته ،للسبب نفسه دوما : الامية ، والرغبة في السيطرة التي تعزز الامية ، والامية تعززها .

وهذا الذي نقله الاستاذ خوري عن العدد الاول من مجلة«الطريق» يجلو كل ما يمكن ان يكون غامضا في واقع « الجماعة المثقفة »، وبالتالي في واقع المجلات الثقافية : هذه الجماعة ليست طبقة ، وهم التعالي الثقافي يعزى الى انخفاض مستوى التعليم العام في المجتمع ، ليس للمثقفين اهداف ومصالح مستقلة ، يطرحون المسائل بطرائق مختلفة تخدم اطراف النزاع .

تلك هي حال المثقفين في كل بلد ، ولكن يمكن توحيد اهدافهم جميعا ، واتفاقهم حول مصلحة واحدة ، هي رفع مستوى التعليم ، وتعميم الثقافة على اوسع مدى . وهذا بدوره يخدم المجلات وجماهيرها .

المجلات الادبية والاتحاد السوفياتي

شعرت ، وانا اقرا هذه المقالة، ان كاتبها « يؤمن » ايمانا عميقا بما يقول ، وان فكره ، وقلبه ، وعمله تلتقي كلها عند المعنى الذي تفصح عنه هذه العبارة :« كيف نسعد كل انسان على كرتنا الارضية ، كيف نغمره باجمل الكلمات ، واصفى الافكار واعمقها . كيف نملأ قلبه بالطيبة ؟! » .

وما دام قد اتجه كانسان ،في هذا السبيل ، ولم يبق في الافاق سوى الغيوم التي تحول دون تحقيق غايته هذه ، فان النور الذي يغمر سريرته ينعكس امامه ، ويشع من حوله ، ويأخذ ، وهو يسير، في تبديد الظلام ، وازالة العقبات ، وتحطيم العوائق .

بيد اني كنت انتظر،من خلال العنوان،ان يتحدث الياسوفرونوف عن المجلات الادبية التي نعرفها في الاتحاد السوفياتي ، مثل « الادب السوفياتي » سابقا و« اعمال واراء » التي حلت محلها ، و« الثقافة والحياة » و « انباء موسكو » الاسبوعية وغيرها .. مما لا نعرف .

لقد بين بصورة عامة « ان المجلات الادبية اجهزة تسجل بدقة تحرك طبقات الارض العميقة .. » وان « المجلة الادبية واحدة منافضل الوسائل الفعالة لاتحاد الكتاب ، وخلق جو ادبي في البلاد » .

هذا كله صحيح ، ولكن بقينا لا نعرف شيئا عن « حياة المجلة الادبية » في الاتحاد السوفياتي ، وكيف تعيش ، وكيف يتم تزويدها بالمادة البشرية ـ اي الادباء ـ الذين يحولونها الى « جهاز تسجيل » ويجعلونها « افضل وسيلة فعالة لخلق جو ادبي في البلاد » . وما هي « الخلفيات التاريخية » لمثل هذه المجلات ، ومحرريها ،وناشريها، والقائمين على توجيهها .

ذلك بان الادباء المحدثين في روسيا السوفياتية ، تحدروا من الجيل الذي اعطى تولستوي ، وتشيخوف ، وغوركي ، وغوغول ، وتورغينيف ، وغيرهم ، وهؤلاء كانوا يكتبون في المجلات ، ويودعونها نتاج قرائحهم ، فما هي اوضاع المحدثين منهم ؟ لقد تسامع الناس هنا، وفي كل مكان ، بما دعي « قضية باسترناك » سابقا ،و « قضية سولجنيتسين » مؤخرا ، فكيف تنامى هذان ، وتكونا ؟ وما هو دور المجلات الادبية السوفياتية في نشوء الضجة حولهما ؟ واذا كان للادب في عصرنا مهام لها اهمية كبرى ، من بينها المهمة الحضارية بأوسع معاني هذه الكلمة » كما يبين اناتولي سوفرونوف ، فان العقبات الكثيرة التي تمنع الادب من اداء المهمة الحضارية جزء لا يتجزأ من هذه الحضارة المعاصرة ، فمن هو المتحضر الحقيقي ؟

لا يمكن ، في التحليل الاخير ، ان ينطبق وصف المتحضرين على الذين يؤازرون العدوان والاغتصاب ، فضلا عن القائمين بالعدوان والاغتصاب ، حين يخرج من صفوفهم رجال يقتالون غسان كتفاني ، ويسجنون المطران كبوجي ، ثم يتباهون بعدد الحائزين جائزة نوبل للادب ، ممن ينتمون اليهم !

تلك هي المهمة الحضارية التي لم توفق المجلات الادبية في اوروبا الى ادائها بعد !

مجلات فيتنام الديمقراطية

« تكمن اهمية الصحافة الادبية في انها ، بانشطتها المتعددة تدعم الرابطة بين الكاتب والجماهير » .

هذا هو افضل ما يمكن ان يقال في شان الصحافة الادبية ، وقد اطلعنا بوي هين على ما جرى ويجري في تلك البلاد التي يرد ذكرها يوميا على اقلام الصحافيين والادباء في جميع انحاء العالم ، من نشاط في هذا الحقل ، واشار الى جانب قل ان يفكر فيه المربون، هو مهمة الصحافة الادبية في رعاية المواهب الشابة ، وتشجيعها ، ذاكرا ان المجلة الاسبوعية الفيتنامية « ادب وفنون » تنظم مسابقات في القصة ، والشعر ، والمقال . وفي نهاية العام ، تنظم المجلات لقاءات بين المؤلفين ، ويتعارف الكتاب المبتدئون والكتاب المرموقون.

ربما كانت هذه فكرة عملية يصح ان يأخذ بها اصحاب المجلات الثقافية في لبنان ، وغير لبنان من البلدان العربية ،وتتبناها الجمعيات والاندية الثقافية ، على مدى اوسع مما عرفته حتى اليوم ، وباسلوب غير الاساليب التي درجت عليها صحافتنا الادبية العربية ، وقد اشار الصديق الدكتور ميشال عاصي الى المجلات اللبنانية التي « اسهمت في تنشيط حركة الابداع الفني ، بعد الحرب العالمية الاولى ، وخلال فترة الانتداب » . ولكن هذا الجو توارى او كاد بعد الخمسينات من هذا القرن .

المهم ان نفيد من تجربة فيتنام ، فيهذا الحقل ، وهي التجربة التي عرضها بوي هين في هذا العدد من « الآداب » . والذين ينبغي لهم ان يفيدوا منها ، انما هم العاملون في الحقول الوطنية ، والقومية ، والمعنيون بقضية فلسطين منهم ،على الاخص .

دور المجلات في الانتاج الادبي

ها انا اقع لدى سرجي باروزدين ، على بعض ما كنت انتظره من خطاب سوفرونوف ، اومن « عنوان » خطابه ، على الاصح ، ولكن موضوع باروزدين محدد . منصرف الى بيان « كيفية » في العمل ، هي : « كيف تساهم المجلات في الانتاج الادبي ؟ » .

وانه ليعرض في هذا المقال ما يصح ان نسميه « الطريقة السوفياتية » ، وعلى النحو الاتي :

١ ـ نشر احسن الاعمال في النثر ، والشعر .

٢ ـ يناقش العمل المنشور على نطاق واسع بين القراء والدوائر الادبية فور طبع العمل .

٣ ـ يصدر العمل نهائيا في صورة كتاب .

ولهذه الطريقة ، كما يعرضها سرجي باروزدين ويقيمها ، ثلاث فوائد :

١ ـ تقدم المجلة للقارىء عملا جديدا ، في فترة زمنية اقل .

٢ ـ تمكن الكاتب من التعرف على الطريقة التي قوبل بها عمله، فيصحح اخطاءه ، ويزيد من مواضع القوة في انتاجه .

٣ ـ يستلم الكاتب اجرا مضاعفا من ناشري المجلة ،وناشري الكتب.

ذلك يستلزم بالضرورة ، ان يكون لدى كل مجلة دائرة مختصة بالنقد ، يضاف اليها دائرة للترجمة ، ودرس الترجمات عن اللغات الاخرى .

لا ادري اذا كان متاحا لمجلاتنا الادبية ان تفيد من هذه الطرائق في تشجيع الانتاج الادبي ، وتطبقها في الاطر العربية . ومن الواضح ان تطبيقها يحتاج الى اموال تعوز معظم المجلات العربية ، او كلها بلا استثناء .

المجلات الادبية والابداع الادبي

يتحدث الاستاذ صلاح عبدالصبور عما قامت به المجلات في مصر ـ وهي التي تقود التغير الثقافي ، وتبشر بالقيم الجديدة في مجالات الحياة والادب والفن ـ من نشر كتابات كبار رجالها الاصلاحيين والثوريين ، مبينا ان « حياة الكتاب لا تزدهر في المجتمعات النامية بدون حياة المجلة الثقافية » ،حتى اذا وصل الى الحديث

عن الشعر نسي ان يذكر « مجلة ابولو » ، وما كان لها من تاثير في شاعريات تلك الحقبة ، كما اذكر ان ثمة مجلة وفقت حياتها على الشعر ايضا ، كانت تصدر في اللاذقية « القيثارة » ولم يطل بها العمر ، شانها شان ابولو .

وهناك فقرة وردت عفوا على قلم الاستاذ عبدالصبور ، وكانها حقيقة بدهية لا تحتمل الجدل ، وهي قوله :« .. ففي ادب كادبنا العربي نجد ان فنونا مستحدثة في بلادنا ، او بالاحرى مستنبتة ، تحاول ان تشق طريقها ، مثل فنون المسرح والرواية ، وهي فنون لم يعرفها تراثنا العربي » ! وليست المسالة بهذه البساطة ، ولا سيما فيما يخص الرواية ، فهذه ليست سوى قصة طويلة . والقصص في جوهره ، فن يكاد يكون عربيا خالصا ، وكان جون شتاينبك قد المح الى هذه الحقيقة ، حين قال : « عجيب مدى ما نعثر في « الف ليله وليلة » على جذور للقصص الغربية جميعها ،تقريبا »، هذا عدا عن الروايات الشعبية المعروفة ، مثل سيرة عنترة ،والملك سيف ، والزير ، وتغريبة بني هلال . فالقول بانها « فنون لم يعرفها تراثنا العربي » ،اغفال لرقعة من الواقع ، لا يجوز اغفالها .

دور المجلات الادبية اللبنانية في الخلق الفني والابداع

موضوع الدكتور ميشال عاصي ينحصر في بيان ما احدثت الصحافة اللبنانية الادبية ، من تاثير في الحياة الادبية على صعيد الابداع .

لم يشا ان يكون مؤرخا ، ولكنه اضطر الى معالجة جانب من تاريخ الصحافة الادبية ، ـ وهو تاريخ لم يكتبه احد بعد ! ـ وهو يتتبع مظاهر الخلق الفني ، ومعالم الابداع ، فيما نشر في المجلات الادبية .

وهكذا حمله موضوعه حملا على اظهار « مكانة » لبنان في حقلي الصحافة والادب العربيين ، وهي مكانة اولى ، من غير شك ،حتى في البلدان العربية الاخرى ، وفي مقدمتها مصر . ولكنه يربط ،على نحو من الانحاء ، بين الاسباب التي تجعل من لبنان بلدا تجاريا واقتصاديا مرموقا ، العوامل « المسعفة » على دفع اللبنانيين الى تحقيق المبادرات الخلاقة في شتى ميادين المعرفة .. ثم يكمل هذه الصورة للوضع الثقافي والاقتصادي في لبنان بملاحظة الصراع الذي خاضته دائما ، وتخوضه في استمرار ، قوى الانتاج النامية ضد كل ما يعيق تطورها ،على الصعيدين : المادي والايديولوجي.

وجوهر المسالة لا يكمن في هذا الترابط بين الوضع الثقافي والوضع الاقتصادي ، فيما يخص لبنان بالذات ، ولا سيما عند تقصي عوامل الابداع ، لا عوامل الانتاج ، وانما يكمن ـ كما هو واضح تاريخيا ـ في اصالة اللبنانيين العربية من جهة ، ومواقف السلطات الاجنبية من هذه الاصالة ومحاولة تدميرها ، في اواخر العهود العثمانية ، من جهة اخرى ، ثم في اتصال اللبنانيين بتيارات الفكر والفن والادب في العالم ، من جهة اخيرة .

ولنا في ادب المهاجر اكبر دليل على صحة ما تعرض ، فالذين هاجروا من اللبنانيين الى الاميركتين ، وحتى الى مصر ،في القرن الماضي ، لم يتركوا وطنهم الا هربا من حملات « التتريك » ، وتخلصا من الضغوط التي كانت تمارس عليهم .. والقياس يطرد في شان كل من هاجر من بعد ، منذ انتهت الحرب العالمية الاولى حتى اليوم . ثم ان لنا ، فيما يقرره الدكتور عاصي ، دليلا اخر ، حول « اهتمام » اللبنانيين الاول باحياء اللغة العربية ، في اول مجالات الخلق والابداع الفني .

ولقد كان الدكتور عاصي موفقا في استعراض المحاولات التي قامت بها بعض المجلات في هذا المجال ، ولكنه اغفل المحاولات التي جاءت بعد جيل « البرق » و« المعرض » و« المكشوف » ، وكانت تتمة لها مثل مجلة « الرسالة » و « الانطلاق » ،و « الرحمة » ووريثتها « أصداء » ، فقد نشأت هذه المجلات ، تعبيرا عن محاولة في التجديد والابداع ، ثم توارت لما لقيت من انصراف عن الادب وتبرم بالتجديد، فكان احتجابها تعبيرا ايضا عن اوضاع لا بد ان يعود اليها التاريخ ليدرسها في مرحلة لاحقة ، وكانت هذه « الندوة » بداية موفقة لها ، ومظهرا من مظاهرها .

الصعوبات التي تواجهها المجلات الادبية

وهذه هي السيدة عايدة مطرجي ادريس تحدثنا عن الصعوبات التي تواجهها المجلات الادبية ـ التي لم تحتجب بعد ـ في لبنان . ويقص علينا فؤاد التكرلي قصة المجلات الادبية والثقافية عامة ، ويقترح انشاء « هيئة » او اتحاد للمجلات الافريقية ـ الاسيوية ،ويبين احمد ابراهيم الفقيه تجربة ليبيا في هذا الحقل ، ويعرض المصاعب التي عرضتها السيدة ادريس ، مع اختلاف في بعض وجوه الصعوبة، ومقترحات لتذليلها . وكذلك هو حديث الدكتور عزالدين اسماعيل عما جرى ويجري في مصر ،وحديث الاستاذين عبدالجبار داود البصري وشمران الياسري عما جرى ويجري في العراق .

كل هذه المقالات ، بما فيها من وقائع ومعلومات ، وما يتخللها من مقترحات واراء ، توحي بما لا يدع مجالا لشك ، ان ثمة « وحدة في مشاكل المجتمعات العربية »، فلا ندحة عن التعاون داخل كل مجتمع اولا ، ومع المجتمعات الاخرى ، لينم حل تلك المشاكل « الواحدة » بطريقة منهجية، واهداف محددة ، والتعاون نفسه في مثل هذه الحالات بداية حل ...

لقد بينت السيدة ادريس حين تعرضت لطرق « تذليل الصعاب» انها لا تدري الى من « تتوجه اولا » ، وذلك ناشيء عن شعورها بافتقاد التعاون ، في هذه المجالات ، بين مختلف القطاعات داخل المجتمع اللبناني ،ثم بين المجتمع اللبناني ككل وسائر المجتمعات العربية .

وكان ما بينه الدكتور عزالدين اسماعيل من « عناصر » داخلية تهدد كيان المجلة من داخلها ، غاية في الصحة والواقعية : « المجلة التي لا تستجيب في مادتها ، وفي فلسفة تحريرها للهموم والمطالب الروحية والفكرية الانية ، او التي تخطىء فهم هذه الحاجات الملحة فتنحرف او تنجرف الى مشكلات وهمية او قضايا لم يعد لها في الواقع رصيد من هموم الناس ، والمجلة التي تنغلق دون ما يجري في العالم ، سواء للجهل به ، او لتجاهله او رفضه ، والمجلة التي لا تفتح صدرها للمغامرات والكشوف الجديدة ـ المجلة التي هذا شانها تصبح مهددة من داخلها ، ويؤذن نجمها بالافول » .

وهكذا ، يتضح الموقف ، ويمكن البدء في تنفيذ الحلول : تعاون في الداخل والخارج ، واقصاء كل عنصر يهدد كل مؤسسة ثقافية ـ لا المجلة وحدها ـ من داخلها ، وعمل مشترك بين المؤسسات الثقافية والسلطات للقضاء على العوامل والاسباب الحقيقية الكامنة وراء استخدام الرقابة !

وتلك هي خلاصة البيان الختامي لندوة المجلات الادبية والثقافية. فهل يمكن بعد ان يزاد عليه شيء ؟

نعم ! لا بد من الثناء على الذين اقاموا هذه الندوة ،وشاركوا في ابحاثها ودراساتها ، وهو ثناء ينبثق من العمل نفسه ، ويتوجه تلقائيا الى عامليه .

بيروت